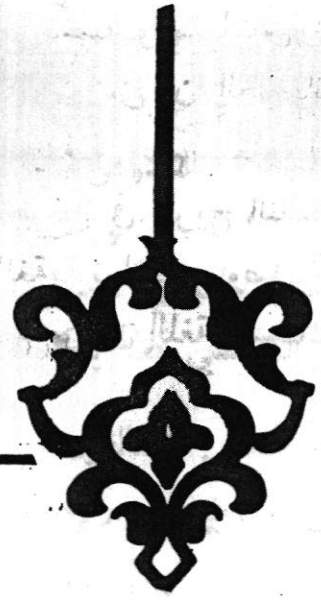

الفصل الثالث عشر

الجرجاني ونظرية النظم

شغلت قضية الاعجاز القرآني الفكر البلاغي والنقدي العربي منذ القرن الاول للهجرة ولم يكن عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) اول من تكلم فيها ولا اخرهم . ومع ذلك فكتابة (دلائل الاعجاز) يحتل مركزا مرموقا ضمن المؤلفات التي وضعت للتدليل على اعجاز القرآن الكريم والسبب هو ان مؤلفه نظر الى الاعجاز من زاوية لم تألفها معظم الدراسات السابقة واللاحقة حتى ليصح القول انه يمثل حلقة متميزة في سلسلة الدراسات التي عالجت الاعجاز القرآني على مر القرون . فالجرجاني وقد بهره الاعجاز القرآني لم ير في دراسات السابقين مايمكن ان يكون مقنعا ليفسر اعجازه فبعضها نظر الى الاعجاز من زاوية خارجة عن النص القرآني كالاخبار بالغيب او الصرفة مثلا وبعضها الاخر نظر اليه من زاوية ضيقة جدا من شأنها ان تفسر الاعجاز على ايات معدودات . اما الجرجاني فيرى ان الاعجاز انما يكمن في النص القرآني نفسه وفيما يسميه (النظم) على وجه التحديد .

وفكرة النظم التي يفصل فيها الجرجاني القول كثيرا ليست جديدة تماما فجذورها قائمة في بعض كتابات الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) والرماني (ت ٣٨٦ هـ) والخطابي (ت ٣٨٨ هـ) والباقلاني (ت ٤٥٣ هـ) والقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) وقد دفع هذا بعضهم الى القول بتاثير الجرجاني بهؤلاء جميعاً او ببعض منهم(١) .

(١) انظر د . محمد زغلول سلام . تاريخ النقد العربي ٢ / ٢١٤

ليس من شك في ان الجرجاني استوعب كل الافكار التي سبقته في هذا الموضوع وحاول ان يخرج بنظرية لاتفسّر الاعجاز القرآني حسب وانما النص الكلامي الرفيع شعرا كان ام نثرا وفي ضوء هذا يجمع الدارسون على ان الجرجاني جاء بنظرية تطابق احداث ماوصلت اليه النظريات الحديثة في علم اللغة . فالدكتور محمد مندور وهو من اوائل من التفت الى اهمية الجرجاني في تاريخ النقد العربي وقول ان (منهج الجرجاني يستند الى نظرية في اللغة . تماشي ماوصل اليه علم اللسان الحديث حين يقرر المؤلف مايقرره علماء اليوم من ان اللغة ليست مجموعة من الالفاظ بل مجموعة من العلاقات(٢)

وتحاول بعض الدراسات ان تربط تفكير الجرجاني في (النظم) بالنظريات الاسلوبية المعاصرة(٣) وبصرف النظر ان كانت نظرية الجرجاني تقترب من ذلك فأنها ـ بلا شك ـ تستند الى نظرة النحو مخالفة للتصوير السائد الذي لايرى في النحو اكثر من الحركات الاعرابية التي تلتصق باواخر الكلمات وهو يعرض مايمكن ان نسميه (نحو المعاني) زد على هذا ان نظرية الجرجاني تعالج مستويات الكلام الذي يبدأ بالعادي المغسول وينتهي بالمعجز الذي هو القرآن الكريم .

يشكل كتاب الدلائل حجر الاساس في نظرية النظم على الرغم من ان (اسرار البلاغة) معني هو الاخر بهذه الفكرة ولكل على نحو اقل . لان اهتمام الجرجاني في (اسرار البلاغة) موجه الى الكشف عن الجانب النفسي في النص الادبي من جهة ودور الصور البيانية في ذلك من جهة اخرى(٤)

بكلمة اخرى يهتم الجرجاني هنا في (معنى المعنى) . اي المعنى الذي يكمن وراء المعنى الظاهري للعبارة . ويريد بذلك المعاني المجازية اما في (دلائل الاعجاز) فهو معني بمعنى النظم وكونه تابعا للمعاني التي يراد التعبير عنها .

---

(٢) في الميزان الجديد (القاهرة ١٩٤٤) ١٤٢

(٣) انظر مقال (مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني) لنصر ابو زيد ومقال (النحويين عبد القاهر وتشومسكي) لمحمد عبد المطلب في مجلة (فصول) عدد ديسمبر ١٩٨٤ .

(٤) د . عبد القادر حسين اثر النحاة في البحث البلاغي (القاهرة) ٢٦٩ . وقد كتب الاستاذ محمد احمد خلف الله فصلا رائدا في هذا الصدد في كتابه (من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده) .

لم يشرح الجرجاني نظرية (النظم) في الدلائل على نحو منهجي منظم. فالدلائل مجموعة افكار يعوزها شيء من الانتظام فهو يشرح الفكرة الواحدة في اكثر من موضوع .. هذا الى جانب ان اهتمام المؤلف بالنواحي التطبيقية ونعني بها عملية تحليل النصوص ولاسيما الشعرية، اكبر من اهتمامه بالجوانب النظرية . وقد لاحظ ذلك د . مندور فقال (ليس لنظرية الجرجاني من القيمة ما لتطبيقاته)(٥) ومع ان منهجه في تحليل النصوص قائم على فكرة النظم ، الا انه لايخلو من اثر الذوق الشخصي كما يؤكد مندور .

ثم يمضي الى القول: ابتدأ الجرجاني بنظرية فلسفية في اللغة وانتهى الى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا في دراسة الادب(٦) لان العمد في إدراك البلاغة (النظم) الذوق والاحساس الروحاني وهو امر لايدركه الا الحدس وليس بالمستطاع تخيله ووصفه تماما . لانه كما يقول الموصلي امر تحيط به المعرفة ولا تؤديه الصفة .

الاعجاز القرآني : ـ

ينكر الجرجاني ، كما اشرنا ان يكون الاعجاز في الفاظ القرآن وحدها او في معاني الكلمات مفردة . كما يرفض ان يكون في ترتيب الحركات والسكنات او في الفواصل . ولا يمكن ايضا ان نجعل الاستعارة اصلا في الاعجاز لان ذلك يؤدي الى ان يكون الاعجاز في آيات محددة في مواضع من السور الطوال المخصوصة كما يقول(٧) فاذا امتنع ذلك لم يبق الا ان يكون الاعجاز في النظم والتأليف وانكار النظم انكار للاعجاز(٨) .

وكان الجرجاني معنيا بالرد على من يرى ان بلاغة الكلام في الفاظه او في معانيه او في الاثنين معا . وقد عرض في نظرية النظم تصورا جديداً يلغي ثنائية اللفظ والمعنى التي سادت الفكر البلاغي والنقدي العربي . فالنظم عنده محصلة العلاقة القائمة بين الالفاظ والمعاني . وينتج عن ذلك ما يسميه الجرجاني (الصورة التي تبدو كما لو كانت عنصرا ثالثا مزيجا من اللفظ والمعنى .

---

(٥) في الميزان الجديد ـ ١٥٥

(٦) المصدر السابق .

(٧) دلائل الاعجاز ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩١

(٨) المصدر السابق

يقول ان معظم الغلط الذي وقع فيه الناس جهلهم شأن الصورة وتصوروا ان ليس هناك غير اللفظ والمعنى ، وانه اذا كان كذلك وجب اذا كان لاحد الكلامين فضيلة لاتكون للاخر ثم كان الغرض من احدهما هو الغرض من صاحبه ، ان يكون مرجع تلك الفضيلة الى اللفظ خاصة وان لايكون لها مرجع الا المعنى . من حيث ان ذلك زعموا يؤدي الى التناقض .(٩)

وقد تشير القراءة العجلة للدلائل الى ان الجرجاني ميال الى المعنى دون اللفظ . فهو دائم التكرار في ان الالفاظ ادلة على المعاني(١٠) وهذا حق طالما ان الالفاظ وحدها لاتعبر عن معنى دون الدخول في علاقات .. وليس للالفاظ قيمة الا في ضوء موقعها من التركيب والتأليف والنظم فليس هناك تفاضل في الالفاظ من حيث كونها

وحشية او غريبة ، مألوفة او مأنوسة(١١) وقد غاب عن ذهن كثير من الناس كما يرى ، ان قولنا (لفظة فصيحة) او(متمكنة) او (مقبولة) وفي خلاف ذلك (قلقة ونابية ومستكرهة) . هو تعبير عن حسن الاتفاق او سوء التلاؤم بين الالفاظ .(١٢) فهذه كلها صفات للفظة وهي في موقعها في الكلام وليست خارجة عنه . والدليل على ذلك ان لفظة ماتحسن في موضوع وتقبح في آخر . فالالفاظ على هذا لاتتفاضل من حيث الفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلمة مفردة .(١٣)

وفي ضوء هذا يقدم الجرجاني مفهوما للفصاحة مخالفا لما يراه جمهرة البلاغيين عندما جعلوها صفة للفظ . في حين انها عنده مزية خاصة بالمتكلم دون واضع اللغة .

فالمتكلم لايستطيع ان يصنع بالالفاظ شيئا ولا يحدث فيها وضعا جديدا(١٤) فأن استطاع المتكلم اقامة نوع من التلاؤم بين الالفاظ فهو الفصيح وهذه هي الفصاحة وبها يتفاوت المتكلمون وتختلف الاساليب ولكون الالفاظ اوعية للمعاني

---

(٩) المصدر السابق ٤٨١ ـ ٢٨٢
(١٠) المصدر السابق ٤٨٣
(١١) المصدر السابق ٤٤
(١٢) المصدر السابق ٤٥
(١٣) المصدر السابق ٤٦
(١٤) المصدر السابق ٥٧

فهي تابعة لها(١٥) ولا تتحقق المعاني على نحو مايريده المتكلم الا بأن يضع الالفاظ على نسق مخصوص . ويبدو ان الجرجاني ـ هنا يتجاوب مع الجاحظ وقوله « انما الشعر صناعة وضرب من التصوير » على ان يفهم من لفظة « التصوير » هنا كما يرى الجرجاني ـ الاسلوب والنظم والتركيب الذي يميز نصا من اخر . لم يرد الجاحظ في مقالته هذه غير الشكل الذي يعرض فيه الكلام . ومن اجل ان ينفي الجرجاني عن نفسه تهمة سوء فهم قول الجاحظ . وربما كان يعرض تفسيرا اخر لمقولته . يقول الجرجاني في نص مهم له مامعناه ان البينونة (اي الفرق) بين احاد الاجناس تكون من جهة الصورة . ونحن نميز انسانا من اخر او فرسا من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا ولا تكون في صورة ذاك . ويطبق الجرجاني هذا على الشعر فيقول (ثم وجدنا بين المعنى في احد البيتين وبينه في الاخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا « للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك » وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتكرنا فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور من كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ . وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير(١٦)

نظم الحروف ونظم الكلمات :

ويكرر الجرجاني دائما انه اذا تغير النظم فلابد حينئذ ان يتغير المعنى(١٧) . ان المعنى المطلوب تجسيده نابع من فكر المتكلم ويتحقق بارادته . فالنظم عملية ارادية واعية . وهو يختلف عن نظم الحروف في كلمات . فهذا نظم اعتباطي لا ارادة للمتكلم فيه . يقول « وذلك ان نظم الحروف هو تواليها في النطق . وليس نظمها بمقتضى عن معنى . ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى ان يتحرى نظمه لها لما تحرّاه . فلو ان واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك مايؤدي الى فساد . واما نظم الكلمة فليس الامر فيه كذلك لانك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النص . فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض . وليس هو النظم

---

(١٥) المصدر السابق ـ ٥٢

(١٦) الدلائل ٥٠٨ هذا خلاف مايراه معظم الدارسين من ان لفظة (التصوير) في عبارة الجاحظ تشير الى الصورة بدلالتها المعاصرة . وهذا وهم وقع فيه الكثيرون .

(١٧) السابق ٢٦٥

الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما اشبه ذلك مما يوجب اعتبار الاجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك . وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصح(١٨)

وعلى هذا لاقيمة للالفاظ مفردة لان ليس للمتكلم ان يتصرف في معناها او في نظم حروفها والامر ان هنا اعتباطان . ودور المتكلم يكمن في اختيار اللفظ وتوزيعها على وفق نسق معين يقتضيه ويوجبه المعنى المطلوب التعبير عنه فاذا قلنا مثلا (ضرب زيد) فالذي يعود الى المتكلم هو اثبات الضرب لزيد اولا ثم اثبات هذا الضرب في زمن مضى وليس اثبات دلالة . الضرب على لفظة (ضرب) او وصف حروفها على نحو ما هي عليه .(١٩)

والجرجاني على حق بمقدار ما يتعلق الامر بارادة المتكلم التي تنظم الكلمات على وفق المعنى وهو لا يريد غير تأكيد ان النظم ملكة انسانية وليست الموازنة بين الطبيعة الاعتباطية (للالفاظ) والطبيعة الارادية (للنظم) مما يدعو الى ان نغمط حق اللفظة مفردة . فالنظم لايقوم الا بالالفاظ . كما لايقوم المد ماك الا بالحجارة . ان نظم الكلام كما يرى علم اللغة المعاصر لايقوم الا على مبدأي (الاختيار) و (التوزيع) . فالمتكلم يختار من مجموعة الفاظ اللغة ماينا سب المقام ثم يوزع هذه الالفاظ على وفق مايقتضيه المعنى . ومن هنا يبدو ان (مبدأ الاختيار ينصب على الالفاظ اما مبدأ التوزيع فعلى النظم .

وقد يبدو ان الجرجاني يرى ان الفكر الانساني لايتم الا في اطار العلاقات السياقية بين الالفاظ . اذ لايمكن ان يتعلق الفكر الانساني بمعنى اللفظة مجردة عن معاني النحو اي (العلاقات) فهل يتصور ان يفكر انسان بمعنى (فعل) من غير ان يريد اعماله في اسم او ان يفكر في اسم من غير اعمال فعل فيه(٢٠) . فالانسان في ضوء هذا التصور لايفكر الا بجمل او لايفكر الا نظما .

---

(١٨) الدلائل ٤٩

(١٩) الاسرار ٣٧٦ / ٣٧٨ (رتز) عن نظرية اللغة ١١٤

(٢٠) الدلائل ٤١٠ ، ٤١٢